

مقدمة

بدأ العقل العلمي في مطلع القرن العشرين يعيد النظر في أسسه ومبادئه وتصوراتهِ ونظرياته بفعل ثورة العلم المعاصر التي أدت إلى تغيرات جذرية في النظر إلى هذا العقل، فقد أصبح العقل العلمي في القرن العشرين أداة نقد وتقويض للأنساق والمناهج والأسس العلمية الثابتة والكلية التي كانت تسعى التصورات الفلسفية العقلانية الحديثة إلى تبريرها والبقاء عليها بحجة أنها حقائق صادقة وبديهيات يقينية ومسلمات لا تقبل النقد أو المناقشة، إلا أنه بفضل مراجعات بعض فلاسفة العلم المعاصرين للعقل العلمي الحديث وتصوراتهِ الفلسفية العقلانية، تخلي هذا العقل عن قدر كبير من التصورات والأفكار الجامدة والمناهج العلمية الثابتة التي أعاقَت تقدم هذا العقل إلى الأمام.

ولعل أبرز فلاسفة العلم المعاصرين الذي قدم رؤية جديدة وثاقبة للعلم وفلسفته من ناحية، ولنقد العقل العلمي الحديث من ناحية أخرى، ولتصوره للشكل الذي يمكن أن يتخذه هذا العقل في المستقبل من ناحية ثالثة. فيلسوف العلم النمساوي الأصل بول كارل فيير أبند K.P. Feyerabend (١٩٢٤-١٩٩٤) الذي أثار الجدل والنقاش في مجالات معرفية عديدة لما يقدمه من رؤية جديدة وثاقبة اتسمت بطابعها النقدي التصويبي، حيث أنحرف بول فيير أبند، عامداً، عن نظريات العقلانية العلمية الحديثة التي شكلت بنية وجوهر العقل العلمي، وقدم جواباً لتساؤلات لم تجد تلك النظريات جواباً شافياً لها، ومن هنا تأتي أهمية هذا الفيلسوف في طرحه لآليات جديدة نري من خلالها العقل العلمي بشكل أكثر رحابة ونضجاً، بالإضافة إلى موقفه النقدي الصارم للعلم والحضارة الغربية لسيئهما للسيطرة علي العلوم والحضارات غير الغربية باسم العقلانية العلمية تارة وقواعد المنهج العلمي تارة أخرى.

لقد لقب هذا الفيلسوف بالعديد من الألقاب ووصف بعدة أوصاف، فهو فيلسوف العلم المشاكس أو صاحب القلب المتحجر أو العدو اللدود للعلم، وقد جاءت هذه الألقاب نتيجة ما أثاره هذا الفيلسوف من انتقادات لفلسفة العلم في الثلث الأخير من القرن العشرين، وإذا كان بول فييرآبند قد عرف بأنه فيلسوف علم من الطراز الأول، إلا أنه يشدد في معظم كتاباته على أنه لا يَشيد نظريات ولا يضع قواعد منهجية، وإنما هدفه الرئيسي هو إيجاد السبيل إلى مناهج ونظريات متعددة وإعطاء الفرصة للمعارف غير الغربية للتعبير عن نفسها، فكل شيء مقبول في العلم وفلسفته، وأن فرض طريقة بعينها أو منهج علمي واحد داخل العلم، هو نوع من السيطرة الأيديولوجية التي تحل محل فلسفات العلم تبريرها بإضفاء صبغة عقلانية غريبة عليها، لهذا كان جدير بنا أن نكرس صفحات هذه الكراسة لإلقاء الضوء على فيلسوف العلم المعاصر بول فييرآبند ونقده لصور العقلانية العلمية الحديثة في فلسفة العلم ولكن قبل البدء في كشف هذه الانتقادات علينا أن نتعرف عن قرب بهذا الفيلسوف الذي أثارت كتاباته وآرائه الكثير من الجدل والنقاش بين العلماء والفلاسفة على حد سواء.

بول فييرآبند : حياة ضاع وقتها سدي

كتب بول فييرآبند سيرته الذاتية في كتاب يحمل عنوان " وقت ضائع سدي : سيرة ذاتية لبول فييرآبند " والذي نشر بعد وفاته بعام واحد، أي عام ١٩٩٥، وعلى الرغم من أن كتابات بول فييرآبند يسود معظمها بعض العبارات والشعارات الغامضة والانفعالية، وفي أحيان كثيرة يسودها السخرية، إلا أنه يبدو في هذا الكتاب أكثر جدية وموضوعية في تناول سيرته الشخصية والأكاديمية على حد سواء، أما لماذا اختار بول فييرآبند هذا العنوان ليكون تعبيراً عن سيرته الذاتية، فإن هذا يعود إلى إحساسه أن هناك فترات عديدة من حياته قد مرت بلا هدف ولا غاية ومن ثم كان هناك جزء كبير من حياته قد ضاع سدي.

ويغلب على كتاب بول فييرآبند "وقت ضائع سدي" المزيد من الموضوعات والأحداث الشخصية التي تعرض لها أثناء حياته، حيث يبدأ في تتبع سيرته

الذاتية منذ طفولته حتى وصوله إلى هذه المكانة الأكاديمية العالمية الرفيعة، كما يتحدث في هذا الكتاب عن حياته أثناء الحكم النازي وخبرته في الجيش الألماني وقصة الطلقات النارية التي أصابته بالشلل وجعلته عاجزاً يعاني من الآلام طيلة حياته، كما يتذكر بول فيير أبند في هذا الكتاب مواهبه العديدة في الغناء والتمثيل وفن الأوبرا ولقائه مع الفيلسوف ذائع الصيت فتنجشتين، بالإضافة إلى تذكره لعلاقاته الغرامية النسائية العديدة والزيجات الأربع وكيف أنه يفاخر دائماً بأنه مطار د جيد للنساء.

علي أية حال، عاش بول فيير أبند طفولة مليئة بمشاعر الغربة والوحشة والخوف من الجيران والأطفال والعالم بأسره الذي كان يمثل له خطراً كبيراً فقد ذكر أنه انحدر من أسرة فقيرة امتنعت عن الإنجاب لمدة خمسة عشر عاماً حتى يتوفر لها ما يفي لسداد تكاليف إنجاب طفل (بول فيير أبند) فضلاً عن مرض الأب وقعوده عن العمل ومرض الأم ببعض الأمراض العقلية التي أدت في النهاية إلى انتحارها، كان هذا الجو الأسرى الممزق الدافع إلى ابتعاد بول فيير أبند عن أسرته وتفضيله للعيش بمفرده وفي عزلة شبه كاملة.

التحق بول فيير أبند بالمدرسة الابتدائية في السادسة من عمره، وكان لهذه التجربة الجديدة أثرها السيئ علي فيير أبند الطفل، فلم يستطع التكيف، فسي بداية الأمر، مع أقرانه، فمرض وأبتعد عن المدرسة، ولكن سرعان ما تلاشت مشاكله الصحية عندما تعلم القراءة ووجد العالم الجديد والسحري في الكتب التي تنتظره والتي أنغمس فيها.

وعندما أتم المرحلة الابتدائية التحق بالمدرسة الثانوية ليتخصص في العلوم واللغات، وقد أهتم بول فيير أبند بقراءة كتب الفيزياء والفلك بالإضافة إلى شغفه بالآداب وخاصة أعمال دون كيشوت وشكسبير وإيسن وجوته.

ولم تكن الفلسفة بعيدة عن اهتمامات بول فيير أبند في هذه المرحلة المبكرة، ولعل الصدفة هي التي قادت فيلسوفنا إلى طريق الفلسفة، فقد كان من عادة بول فيير أبند شراء الكتب المستعملة وخاصة الروايات والقصص والمسرحيات، فوقع في يده بعض المؤلفات الفلسفية وخاصة مؤلفات أفلاطون وديكارت، فبدأ في قراءة هذه المؤلفات وتفسيرها. ومنذ ذلك الحين أصبحت

الفلسفة، وخاصة القديمة منها، هي شغله الشاغل، وهذا يفسر اهتمام فيير أبند بالفلسفة القديمة في سلسلة المحاضرات التي ألقاها في كاليفورنيا بباركلي، وربطه الدائم بين الفلسفة القديمة والعلم.

وعندما أتم فيير أبند دراسته الثانوية التحق بالجيش الألماني كضابط في سلاح المهندسين وذلك في الحرب العالمية الثانية، وقد عرف فكفاته كضابط في الجيش حتى حصل علي جائزة الصليب الحديدي عام ١٩٤٤، وقد أصيب فيير أبند إصابة بالغة في الحرب بعدة طلقات نارية في وجهه ويده وعموده الفقري مما تسبب في إصابته بالشلل الجزئي وعجزه عن الحركة الطبيعية طوال حياته. وقد انعكست هذه الإصابة علي حالته النفسية وعلي فكره وفلسفته، فقد كانت طلقات الغرب هي التي أصابته فبدأ ينظر إلى الثقافة الغربية والعلم الغربي نظرة نقدية مبينا مدي توظيف هذا العلم توظيفا أيديولوجيا لخدمة أغراض سياسية ما.

حاول فيير أبند الاهتداء إلى عمل يتكسب منه بعد خروجه من المستشفى إثر إصابته في الحرب، إلا أنه فشل في تحقيق ذلك فأراد أن تكون التسلية والمتعة هي شغله الشاغل فأخذ يكتب السيناريوهات والخطب والمشاهد المسرحية للمناسبات المختلفة وقصص ومسرحيات للأطفال، إلا أن هذا لم يكن يرضي طموح فيير أبند فقرر أن يلتحق بالجامعة، فالتحق بجامعة فيينا واختار دراسة العلوم الفيزيائية وبدأ يتجه إلى مشكلات العلم والفلسفة حتى حصل علي الدكتوراه عام ١٩٥١ في المشكلات الكلاسيكية لديناميكا الحرارية.

قام فيير أبند بالتدريس في عدة جامعات ومعاهد علمية، فقد حاضر في معهد فيينا للعلوم والدراسات العليا من عام ١٩٥١ وحتى عام ١٩٥٦، ثم عمل في جامعة بريستول حتى عام ١٩٥٩ ثم التحق بجامعة كاليفورنيا بباركلي لتدريس فلسفة العلوم وتاريخها حتى عام ١٩٦٢ عمل أستاذاً لتاريخ وفلسفة العلم بجامعة كولومبيا حتى عام ١٩٧٠ ثم عاد إلى جامعة كاليفورنيا بباركلي حتى قدم استقالته من العمل الأكاديمي رسميا عام ١٩٩٠.

وفي الحادي عشر من فبراير عام ١٩٩٤ توفي فيير أبند في منزله بزيورخ عن عمر يناهز السبعين عاماً بعد حياة حافلة بالمشاكل النفسية والاقتصادية

والفكرية إلا أنها أثمرت في النهاية عن فيلسوف علم جريء وجه كل سهام النقد والمراجعة لأسطورة تفوق العلم الغربي علي العلوم غير الغربية كاشفا زيف المشروع العقلاني العلمي الغربي الذي هو في الأساس مشروع سياسي أيديولوجي محض.

شكلت عدة خلفيات وركائز معرفية فكر وفلسفة فيير آبند وأثرت بعمق في تفكيره وفلسفته وتوجهاته نحو العلم وفلسفته، من بين الفلاسفة الذين تأثر بهم فيير آبند الفيلسوف الإنجليزي جون ستيوارت مل Mill. J.S (١٨٠٦ - ١٨٧٣) حيث يتبنى فيير آبند العديد من أفكاره الواردة في كتابه "في الحرية" ١٨٥٩، حيث يدافع جون ستيوارت مل في هذا الكتاب عن الحرية الفردية والتعددية وضرورة وجود أنماط وأساليب متعددة من التفكير، هذه التعددية هي التي تكفل للإنسان الفرد حريته، يقول فيير آبند: "لقد تعلمت من جون ستيوارت مل وخاصة في كتابه "في الحرية" أن وجهات النظر العالمية المختلفة ينبغي أن توضع في الاعتبار، فهذه التعددية التي قال بها جون ستيوارت مل قد ساعدتني في وضع نظرية الاختبار علي هذا الأساس". لهذا يمكننا القول أن الأساس الذي استند عليه فيير آبند في عقلانيته العلمية والذي يكمن في دعوته للتعددية المعرفية والمنهجية والثقافية والسياسية قد استمد من جون ستيوارت مل.

ويذكر فيير آبند أنه يدين بوضعه الفلسفي المبكر الذي كان يتبناه عندما كان طالباً، إلى الفيلسوف لودفيج فتجنشتين L. Wittgenstein (١٨٨٩-١٩٥١) الذي كان له شهرة فلسفية واسعة في النمسا ثم في إنجلترا بعد هجرته إليها، لما أثاره فكره وفلسفته من مشكلات ومناقشات فلسفية (وإن كان فتجنشتين ذاته لا يعترف أصلاً بأن ثمة مشكلات فلسفية بل المشكلات عند فتجنشتين مشكلات منطقية في الأساس) كان لها أكبر الأثر علي الأوساط الفلسفية. وقد عرض فتجنشتين نتائج أبحاثه الأولية في رسالته المعروفة باسم "رسالة منطقية فلسفية" والتي كان من أهم نتائجها، نقدها للعبارات الميتافيزيقية، إذ بينت أن أمثال هذه العبارات ما هي إلا نتيجة الخطأ في فهم منطق اللغة. لهذا آمن فيير آبند إيماناً قاطعاً، منذ أن كان طالباً، أنه ليس ثمة معرفة علي

الإطلاق سوي المعرفة العلمية وكل ما عداها هراء، يقول فيير أبند: "كنت اعتقد أنه ليس ثمة معرفة علي الإطلاق سوي المعرفة العلمية وكل ما عداها هراء بعد قراءاتي لأعمال فتنجشتين وخاصة "أبحاث فلسفية" التي كانت مخطوطة آنذاك. وتقوم بترجمتها الفيلسوفة الإنجليزية اليزابيث أنسكومب Anscombe E من الألمانية إلى الإنجليزية.

لقد بدأت علاقة فيير أبند بفتجنشتين عندما كان الأول طالبا في حلقة الفيلسوف الوضعي فكتور كرافت Kraft. V الذي أسس حلقة فلسفية تدعى "دائرة كرافت" ضمت هذه الدائرة العديد من الفلاسفة والأدباء والعلماء، مما أتاح لفيير أبند الفرصة لمقابلة العديد من الشخصيات البارزة في مجالات المعرفة المختلفة وكان من أبرز تلك الشخصيات فتنجشتين الذي زار دائرة كرافت عام ١٩٤٩ لإلقاء محاضرة هناك فتقابل معه فيير أبند وأصبح مقتنعا بأفكار فتنجشتين مما أدى إلى سفر فيير أبند إلى إنجلترا للدراسة تحت إشرافه بجامعة كامبردج إلا أن الموت داهم هذا الأخير عام ١٩٥١ فلم يجد فيير أبند سوي كارل بوبر ليصبح مشرفاً علي دراسته في مدرسة لندن للاقتصاد، فدرس عام ١٩٥٢ نظرية الكوانتم تحت إشراف كارل بوبر إلا أن الوضع لم يستمر طويلاً وفضل فيير أبند العودة مرة أخرى إلى فيينا بعدما رفض وظيفة مساعد لكارل بوبر وهي الوظيفة التي قبل بها تلميذ كارل بوبر النجيب وفيلسوف العلم اليهودي الشهير جوزيف آجاسي Agassi. J، ورغم هذا لا يمكن أن نغفل تأثير عملاق العقل العلمي كارل بوبر، الذي امتدت فلسفته لمعظم مباحث الفلسفة المختلفة، علي فيير أبند وخاصة في المرحلة المبكرة من تطوره الفكري والفلسفي. فقد وقف موقف التأييد لآراء كارل بوبر حتى أننا يمكن أن نطلق علي المرحلة المبكرة من فكر فيير أبند بالمرحلة البوبرية، يقول فيير أبند: "أن إعجابي بكارل بوبر وكتابه منطق الكشف العلمي كان بمثابة نقطة البدء والمحرك الأساسي في أبحاثي". وقد انعكس هذا التأثير علي العديد من المشكلات التي تناولها فيير أبند في فلسفته، فضلا عن اتخاذ فيير أبند النقد، والذي يعد صلب عقلانية بوبر العلمية وجوهرها، الحلقة الأولى في فلسفته العقلانية.

وعلي الرغم من هذا لم يقف الإعجاب حائلاً أمام بول فييرآبند الذي اتخذ موقف الرفض والمفند لعقلانية كارل بوبر العلمية في مراحلها اللاحقة من تطوره الفكري، أعني مرحلة الاستقلال عن كارل بوبر والنضج الفلسفي وقد اتخذ هذا الاستقلال في البداية شكل السخرية من كارل بوبر ذاته، ففي حوار بين بول فييرآبند وإحدى الشخصيات التي اختلقها للتحاور نجد استخفافاً شديداً بكارل بوبر علي هذا النحو:

المحاور : لماذا هاجمت العقلانية النقدية التي هي أساس فلسفة كارل بوبر؟
فييرآبند : أنا لا أعرف أن لبوبر فلسفة.

المحاور : أنت لا يمكن أن تكون جاداً فقد كنت تلميذاً له وترجمت له المجتمع المفتوح.

فييرآبند : لقد استمعت فقط لبعض محاضراته، أما عن ترجمة هذا الكتاب فقد كنت في حاجة إلى نقود.

المحاور : أنت تشير إلى بوبر كثيراً في هوامش مؤلفاتك وكل حججك تدور في الإطار البوبري.

فييرآبند : هذا خطأ، صحيح أن مناقشاتي مع بوبر قد انعكست في كتاباتي المبكرة، إلا أنها مثلها مثل مناقشاتي مع اليزابيث أنسكومب وفجنشتين وبور، وقد قرأت عن الدادية والتعبيرية وكل هذه الأشياء تركت أثراً كبيراً علي، إلا أن فجنشتين كان أعظم فيلسوف في القرن العشرين قاطبة.

المحاور : أعظم من بوبر ؟

فييرآبند : إن بوبر ليس فيلسوفاً بل هو متحذلق وهذا يفسر لماذا يحبه الألمان.

ورغم ما يصرح به فييرآبند من تنصله الكامل من كارل بوبر واستخفافه بفلسفته إلا أن فييرآبند لم ينسلخ كليةً من تأثير بوبر عليه، صحيح أن فييرآبند بدأ حياته الفكرية والفلسفية تلميذاً مباشراً لبوبر يسير علي خطي أسناده النقدية، إلا أن حماس فييرآبند الزائد للروح النقدية ورفضه لفكرة وجود منهج

علمي ثابت وقواعد محددة جعله يبتعد عن آراء أستاذه بوبر، ولا يعني هذا تقليل من شأن هذا الأخير بل إن تأثير كارل بوبر جد عظيم.

وتعد فترة الستينيات من القرن العشرين من أخصب الفترات التي مرت في حياة بول فيير أبند الفكرية والفلسفية والعلمية، هذه الفترة كانت مفعمة بالعلاقات والصدقات مع فلاسفة عظام كان لهم أكبر الأثر علي فيير أبند وتشكيل فكره وفلسفته. فلقد قضى ما يقرب من أربعين عاماً في البلاد المتحدثة باللغة الإنجليزية، أثنان وثلثون عاماً في الولايات المتحدة الأمريكية التي هاجر إليها عام ١٩٥٩ وتجنس بجنسيتها وأصبح مواطناً أمريكياً، وفي جامعة كاليفورنيا بباركلي التقى بالعديد من فلاسفة العلم والفيزيائيين نذكر منهم إرنست فيجل Feigl. A ورودلف كارناب Camap. R وغيرهم الكثير.

أعمال بول فيير أبند الفلسفية

لم يضع فيير أبند أثناء حياته قائمة كاملة بمؤلفاته، ويرجع الفضل في وضع هذه القائمة إلى زوجته جرازيا بوريني Grazia Borrini وإلى عدد كبير من تلاميذه المهتمين بفكر وفلسفة فيير أبند وقد صدرت هذه القائمة في آخر أعماله المنشورة أعني المجلد الثالث من سلسلة "أبحاث فلسفية" والذي نشره جون بريستون Preston J عام ١٩٩٩.

ويمكن تقسيم هذه القائمة إلى ثلاثة أقسام رئيسية : القسم الأول : ويضم مؤلفات الشباب : وهي المؤلفات التي وقع فيها فيير أبند تحت التأثير البوبري كالعديد من فلاسفة العلم المعاصرين، حيث انصبت هذه المؤلفات علي النقد والواقعية وهي تلك الأفكار التي دافع عنها كارل بوبر وأصبحت أساس عقلانيته العلمية وجوهرها. أما القسم الثاني : فيضم مؤلفات النضج الفلسفي والاستقلال : حيث يتجاوز فيير أبند في هذه المؤلفات التأثير البوبري ويتجه نحو عقلانية أكثر شمولاً وفاعلية يتجاوز فيها المذاهب التجريبية الكلاسيكية والتكذيبية البوبرية ويعلن ضديته للمنهج العلمي ولكل أشكال العقلانية العلمية الحديثة والمعاصرة التي فرضت نفسها علي المجتمع العلمي الغربي من أجل السيطرة عليه. أما القسم الثالث : فيضم مؤلفات الشك والنسبوية : حيث

يرتاب فييرآبند في المثل الغربية العلمية والموضوعية الثابتة للتقدم العلمي
ويعلن عدائه للعلم والحضارة الغربية معلنا ميلاد العقلانية العلمية النسبوية.

لقد حاولنا علي صفحات هذه الكراسة مناقشة مفهوم العقلانية العلمية في فلسفة
العلم الحديثة التي عبر عنها فلاسفة العلم في القرن العشرين أمثال كارل بوبر
وتوماس كون وإمري لأكاتوس وقد اخترنا شخصية لها مكانتها العلمية
والفكرية في فلسفة العلم المعاصرة هو بول فييرآبند ليدخل كعنصر أساسي في
المناقشة ناقدا لأشكال العقلانية العلمية تلك، ويأتي هذا العمل الذي تتولي نشره
المكتبة الأكاديمية في سلسلة كراساتنا العلمية تلك الكراسات التي تسعى إلى
زيادة وعي المثقف العربي بضرورة العلم والتفكير العلمي في حياتنا، ليقدم
للقارئ الكريم نموذجا من النقد العلمي والمعرفي للعقلانية العلمية الحديثة لا
لهدمها بل لتقديم صورة أخرى أكثر رحابة وإنسانية للعقلانية.